امين تقي الدين

بقلم الياس ابو شبكة

[نقلا عن مجلة « الجمهور » البيروتية]

ما أشبه امين تقي الدين بولي الدين يكن ، ما اشبه حياة هذا بحياة ذاك ، وما اشبه شعر الاول بشعر الاخير . درج ولي الدين مع الرفاهية والترف ، ومات في خصاصة وشرف ، ودرج امين في بسطة من العيش ، على حرير الحياة ومات على حسكها كالوردة تنمو في بيئها الاخضر وتتأثر على اشواكها ، ولكنهُ مات عزيز النفس عالي الجبين كما عاش

كان امين تقي الدين يحب لبنان كما كان ولي الدين يحب مصر ، ولكم تغنى بهذه البقعة من الارض ، فأول شعره كان اغنية بلبنان وآخر شعره اغنية به

واديك والسهل كمّ المنى ... يدرك بالروح ولا يمتلك
سبحان من خبأ فيك الصفا ... وسلّ من قلب الصفا جدولك

وكان امين تقي الدين اشد اللبنانيين تفاخراً بهذا الجبل وبنيه !

اذا وطنية باهت بقوم ... أرى لبنان ارفعهم جبينا
اشد الحب ما يدعى هياماً ... فما يدعى اذا بلغ الجنونا
سلي ام الفتيات لكل قطر ... فتحناه لها الفتح المبينا
اقمنا مجدها أنى اقمنا ... وكنا دونهُ الحصن الحصينا

ولقد امتزج حبه بسماء هذا البلد وماثه فجاء شعره صافياً كهذه السماء عذباً كهذا الماء ، فشعر امين شعر النفس المرسلة على سجيتها . لا تمنت ولا إعمال ولا كلفة

دعوتهم فلبينا كأنا ... رجعنا للصبا لما دعينا
أحب من الكهولة وهي حق ... خيال الطفولة زار حينا
وأشجى من ليالي الحبيب ... نظمت به بنيك المخلصينا

صباك ، وانت في الخمسين ، غض وشاب بنوك دون الاربعينا
اذا اعددت نفسك للمعالي فأعدد في الصبا الخلق المتينا
اجل ان تربية المادي كذا علمتنا وكذا رأينا

فهذا الشعر العالي لا يصدر الاّ عن نفس صافية ، وايمان حي ووجدان امين

وهذه الدياجة النقية كهذا المرج الصريح ، لا تتفق العين في بسيطه المعتد ولا الاذن في سكونه الجميل

ولكانت صروف الدهر جهمت بيانه كما جهمت حياتهُ ، لو لم يكن جباراً في روحه ، وهو القائل :

ليس من عدة الفتى للمعالي خلق في الخطوب غير جليد

كان ذلك اذ الامين على قمة الشباب يغالب الخطوب بصبر الرجل وجلد الطموح فاذا رافقهُ الهم ركن اليه ثابت العزم قوي اليقين بنفسه :

ويلك يا هم قد ايحتك نفسي فأتوء منها الى مراس شديد

على ان هذا الهم بقي يحز في نفسه عشر سنوات ولم يطلّق هذه النفس التي استباحها كما استباح الشيطان خيرات ايوب حتى لين مراسها الشديد وسلخ منها صرخة المغلوب:

لمني على السمر والاماني ولت كما اقبلت ملاحا
خبأت ياليل فيك همي ياليل من خير الصباحا

فبين هذه الصرخة المغلوبة وتلك الصرخة الغالبة عشر سنوات ، ومن عشر سنوات الى اليوم بقي امين تقي الدين يخبيء «همه» عن الاعين شيماً واباء. قال بالامس:

انا والهم صاحبان كلانا صادق الود حافظ للعهود
ما افترقنا حيناً من الدهر حتى جمع الدهر بيننا من جديد
لسهر الدهر صامتين لثلاّ يكتشف الليل سرنا للحسود
قال لي صاحبي ، وقد لمح الفجر مطلاً يرنو لنا من بعيد
غرني في النهار عين الناس فاني خدن الليالي السود

وقال اليوم :

خبأت ياليل فيك همي ؟ يا ليل من خبر الصباحا

قف قليلاً تأمل هذا البيت . فتذهب طويل وهذا الشاعر يحجب همه عن الناس لانه قوي جبّار يرى بنفسه ان تكشف ضعفها لاعين الشامتين فمن خبّر الناس ، من خبر هؤلاء الشامتين عن هذا الضعف؟ ان نفساً أبية وخلقاً أنوفاً لا يبذلان كما تبذل النفس المتكلة والخلق الدنيء وان يكن الصبح للناس فالليل للشاعر ، فمن سير هذا الاخير في طرق هؤلاء ؟ ومن وضع سؤدد الشاعر موضع الرق من الدهماء؟ أحطمة من حطم الحياة البائسة تحدر الكرامة الى موطىء الاذلاء فتكشف عن عناصر ليست منها لتشي في مساخر الناس مطمونة دامية ؟ أتكون هذه الكرامة رهناً لهذه الحطمة وهي في صناديق الارقاء وخزائن المتسولين ؟

قال ولي الدين يكن :

مكانك الافق ، فما انزلتْ بدلت ضهُ الارض ام بدلكْ
يا ملك الله ، ارضى الملك ملك الثرى من بعد ملك الفلك
ان تؤت خيراً بينهم يحسدوكْ وان تجد بالفضل لا يجحدوك
دانيتهم لكنهم ابعدوك

وشعر امين كشعر ولي الدين فيه جرسهُ وانسجامهُ وطبعهُ وتلك الكآبة الطافية عليه ، كآبة الحنين الى الماضي والالم من الحاضر . فيه شجو البيان المرسل وترف الفنة في ايقاع عذب شجي كهذا الذي يصدر عن غور النفس الشاعرة إبان انسلاخها عن قيود المادة التقيلة الى اجواء الحلم الجميل

وقد يتشبك شعر ولي الدين بمسحة بدوية تشيع في معظمه ، اما شعر امين فقد يطربك حيث يتشبك غيره ، فالقافية ليس مؤطاً لها بكلام من جنسها كما في شعر ولي الدين ، على انها في مكانها ، دائماً في مكانها ، فلا هي دخيلة ولا مزهوة تبشر بقدومها وترمى بنسبها ولا تجيء الاّ في زفة

ليس في شعر امين تي الدين فكرة غريبة او صورة لم تألفها عيناك ، ولكن فيه احسن من ذلك ، فيه عاطفة صادقة مسكوبة في بيان سائغ معسول كغدير صاف لا تتعب العين في رؤية الحصيات الآمنة في قعره . والصدق اجل مزايا الشاعر